في الشرق الأقصى وأميركا الشمالية

لا جدال في أن أوروبا الغربية رغم كل العناصر التنافر في صلب تكوينها، قد سبقت إلى إدراك حقائق العصر، وإلى الالتقاء على قواعد متينة تخدم أهدافها، دع عنك التجمعات المفككة التي وجدت في تاريخ أسبق، من الجامعة العربية والكتل الإسلامية، إلى دول عدم الانحياز، مروراً بمنظمة الوحدة الافريقية، ودول أمريكا اللاتينية، ومجموعة جنوب شرق آسيا. ولكن أجواء الوفاق، وتحريم السلاح الذري والاتجاه إلى نزع السلاح عموماً، مثلما حفزت أوروبا إلى الاتفاق على إلغاء الحدود فيما بينها بداية عام ١٩٩٢، فإنها قد أسرعت بمجموعات أخرى من الدول من أجل التلاقي والحوار، لرسم إطار للتضامن والتعاون لحماية مصالحها في وجه القوى الاقتصادية المتنامية.

* * *

حين كان البريطانيون يلملمون أطرافهم، وينسحبون من أمريكا بعد حرب التحرير التي شنها الأمريكيون ضدهم، ظلت كندا وفية لبريطانيا ومرتكزاً لسياستها، وعوناً لها في الحروب، ودرة في تاج الامبراطورية. غير أن كندا خرجت قبل شهرين من انتخابات برلمانية حاسمة، انتصر فيها الحزب صاحب برنامج الانضمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية في تجمع اقتصادي

واحد، في الوقت الذي تعانق فيه بريطانيا الأم ـ على استحياء ـ مجموعة منافسة في طورها الجديد. ووراء القارة الأمريكية الشمالية التي تجمع الشريكتين، كندا وأمريكا، يتجمع في المحيط الهادي وعلى الشواطىء الشرقية لقارة آسيا التي تضم ما يقرب من نصف سكان العالم، يسري في تلك المنطقة ما يشبه الحمى، من الزيارات والحوارات الرسمية، للاتفاق على مخططات من أجل تجمع آخر على الساحة الدولية.

ومعروف أن الصين وكوريا ومنشوريا، ومعظم شعوب شرق آسيا، تختزن من المرارات ضد اليابانيين ـ ربما ـ أكثر مما تختزن شعوبنا ضد دول أوروبا الغربية، التي رزحت تحت نير استعمارها عشرات من السنين، لقد عانت تلك الأقطار طويلا من عنف وعجرفة وطغيان العسكرية اليابانية، وإلى وقت قريب كان هذا التاريخ يحول دون تفاهم الجيران، حتى بعد الهزيمة للجيش الياباني، واختفاء «الهاراكيري» التي كانت الشعار الياباني للجرأة والتضحية والفداء.

لقد طويت بسرعة صفحة الماضي، لتبرز مكانها السلطة السلمية والسيادة القومية، التي تعتمد في شرعيتها على مزيد من الانتاج لخدمة إنسانها أولاً، وليكون درعها الواقي في صراعات البضائع والأسواق بعد ذلك، فإن الحوارات المدروسة والإيماءات المهذبة أصبحت هي الأسلوب الذي تتحرك به الدبلوماسية في تلك الأقطار، وهذه الحوارات تمضي الآن دون

إبـطاء لبناء حضانة مناسبة لميلاد كتلة عالمية كبيرة أمام الكتل العالمية الناشئة!

* * *

في شهـــر آب من عام ١٩٤٥ هبط الامبـــراطـور «الالـه» هيروهيتو إلى دنيا البشر، وأعلن استسلام اليابان، لأن الشعب الياباني «تحمل ما لا يطاق» بعد أن خسر مليونين من الأرواح، وحين تسلم الجنرال «ماك آرثر» مقاليد سلطة الاحتلال، كانت الـروح اليابـانية في الحضيض، فقد دمرت المصانع، وانتهت التجارة الخارجية بل إنه لم يعد في الأيدي ما يتاجر به، ومع ذلك فإن رئيس الوزراء الياباني «يوشيدا» كان يقول في ذلك الوقت ما معنـاه: «إن العـدو قد حول اليابان إلى كتل من الرماد بغاراته الجوية وقد وفر علينا رفع الآلات القديمة في سبيل تجديدها»، ولكن هذا العملاق الذي طرح على الغبراء دون فراش أو غطاء، لم يلبث إلا فتـرة قليلة من الزمن، لكي يرفع هامته عالياً حتى تطاول السحاب.

فلقـد تفـوق «الين» اليـابـاني على الدولار، وعلى معظم العملات العالمية المتداولة، ليعكس التفوق الياباني في ميادين الانتاج، واختفت معه سريعاً مظاهر الهزيمة عن وجه اليابان، مع الإصـرار والجهد المنظم الدائـب، الذي مكنـهم في فترة قيـاسيـة من احتـلال الجـانـب الأكبـر من الأسواق العالميـة، وبـالـذات أسواق أولئك الذين احتفلوا برفع رايـات النصر في ميادين العاصمة اليابانيـة، فغدت السيارات والأجهزة اليابانيـة

تزاحم الصناعات الأمريكية في عقر دارها، حتى أن الأمريكان بنظامهم المفتوح الذي يتعامل بحرية التجارة وحرية حركة رأس المال، بدأوا يضيقون ذرعاً بهذه الحرية في وجه سيل الصادرات اليابانية إليهم، مما دفع الشركات اليابانية للالتفاف على إجراء أمريكي ببناء فروع لها في قلب القارة الأمريكية.

مع كل هذا التفوق الاقتصادي الياباني، فإن اليابان المنزوعة السلاح، والمجردة من القوة العسكرية، تعرف للحماية الأمريكية التي تظللها قدرها، في وجه التهديد السوفياتي «وتتواضع» قسراً في أي مواجهة مع الحليفة الكبرى أمام الاحتكاكات اليومية في الأسواق التجارية. ولكن حين يشد «شيفرنادزه» الرحال إلى طوكيو من أجل إنهاء حالة الحرب «النظرية» التي لم يجر التوقيع عليها مدى نيف وأربعين عاماً، وتختفي الموجهة العسكرية بين الأقطاب في المستقبل المنظور ـ على الأقل ـ فأكبر الظن أن التواضع الياباني أمام حليفته الكبرى سيخف تدريجياً لأن وفاء اليابانيين لمصالحهم سيكون ـ بالضرورة ـ أقوى وأثبت من وفائهم لأي حليف مهما كان، إذا لم يتمشى هذا الوفاء مع تلك المصالح، ولذلك فقد أعطوا لأنفسهم الحرية الكاملة في رسم إطار يجمعهم مع كوريا الجنوبية وتايوان، ثم الصين، تمهيداً لجذب بقية أقطار الشرق الأقصى لبناء كتلة اقتصادية واحدة!

لقد كانت اليابان هي الأقدم في النهوض مبكراً، والأخذ بزمام التقدم الصناعي والتكنولوجي من بين شريكاتها، فعمر

النهضة الكورية التي تغازلها اليابان اليوم تتزامن مع جزيرة «تايوان» وإذا كانت كوريا الجنوبية قد بدأت معركة التحدي في مواجهة شقها الشيوعي في الشمال، حتى بلغت هذه المرحلة المتقدمة من القدرة على الإنتاج، فإن حركة النمو في «تايوان» قد بدأت مع وصول الجنرال (شان كاي شيك) بعد فراره من الصين الأم، أمام الزحف الشيوعي بقيادة «ماوتسي تونغ» ومن ذلك الوقت سطّرت هذه الجزيرة تاريخاً فريداً من التحدي في سبيل البقاء في وجه المد الشيوعي الذي تضرب أمواجه شواطىء تلك الجزيرة المعزولة، وبمساعدة سخية من الولايات المتحدة الأمريكية صمدت واستطاعت أن تبني قاعدة صناعية وزراعية صلبة تمكنت من الصمود، حين تخلت عنها أمريكا عندما بدأت في تحسين علاقاتها مع الصين، وتخلت عنها كذلك دول العالم تقريباً، حين سحبت الاعتراف الدبلوماسي بوجودها إرضاء للصين، وكان ذلك طوراً آخر من من أطوار التحدي، حفزها إلى مضاعفة جهودها لبلوغ المرحلة الذرية، والوصول باقتصادها إلى مستوى المعجزة، التي تطاول اليابان في المحيط الهادي، بفائض يتعدى الثلاثين بليوناً من الدولارات.

ومن المفارقات العجيبة أن عمر النهضة في كل من كوريا الجنوبية وتايوان ـ والتي لا تقل في ذلك الحين تخلفاً عن منطقتنا ـ لا يزيد عن عمر ثوراتنا «الناجحة» التي عاشت الأمة العربية وتعيش إنجازاتها، أو عدوى هذه الإنجازات، سواء في الانحدار الاقتصادي أو في محاصرة الإنسان وسد السبل في وجه حريته وابداعه.

إن كوريا الجنوبية تحاور الآن كوريا الشمالية ـ دون التبجح بإنجازاتها الاقتصادية ـ لإعادة شطري الوطن الواحد، وإن أقطار الهند الصينية تقف الآن على أعتاب هدنة طويلة بعد سنوات من الدمار والشقاء، وإن الصين الأم تلبس الآن القفاز الناعم لتطمين الابن الشارد في «تايوان»، لإعادة احتضانه والإمساك به، واليابان تتابع هذه التحركات في صبر وأناه، في انتظار ساعة اللقاء وبداية البناء، وهذه الحقائق معروفة ـ ولا شك ـ من قبل قطبي الصراع روسيا وأمريكا، ذلك لأن الأخيرة ما تزال قواتها ترابط في اليابان وكوريا الجنوبية، بحجة حمايتها من ذلك الخطر الشيوعي الرابض في كوريا الشمالية وفي الجزر القريبة من اليابان، وأمريكا لم تقف عند قواعدها العسكرية تلك، بل إنها سارعت إلى إرسال كسينجر في رحلة سرية إلى الصين بعد القطيعة مع الاتحاد السوفياتي، لتتوالى الزيارات والاتصالات العلنية بعد ذلك لبناء صداقة فريدة مع صين «ماو» على أنقاض علاقته العقائدية مع الاتحاد السوفياتي.

لقد وجد غورباتشوف بين يديه تركة مثقلة من جيرانه في الشرق، ووجد أن القطيعة مع الشريك الأكبر ـ الصين ـ قد امتدت إلى ثلاثة عقود، ووجد أن بلاده ما تزال من الوجهة الرسمية في حالة حرب مع اليابان، أما كوريا الجنوبية فهي في خانة الأعداء، والمواجهة مع حليفته كوريا الشمالية، ولقد شرع الزعيم السوفياتي من البداية في إزاحة الركام، وبدأت رسله تروح وتغدو في محاولة لتضييق شقة الخلاف وبناء الثقة مع جارته الكبرى من جديد، وقبل أيام كان وزير الخارجية الصيني قد

وصل إلى موسكو لبحث زيارة غورباتشوف المقبلة إلى بكين ★ . ولأول مرة يتم الاتصال مع كوريا الجنوبية، ويصل «شيفرنادزه» إلى طوكيو لبحث المشاكل القائمة والاتفاق على حلها والتمهيد للقاء القمة السوفياتية.

* * *

كل هذا الوجود الأمريكي في المنطقة وهذه الاتصالات الروسية المتسارعة معها، تدل على أن قطبي الصراع في العالم يتابعان عن قرب ما يجري بين الدول من مناقشات أو اتفاقات ولكنهما على الأرجح يحرصان على التواجد أكثر من حرصهما على الحيلولة بين هذه الدول والتجمع في كتلة واحدة!

إن عدوى النجاح تنتشر بين الشعوب المتماثلة كالنار في الهشيم، وإذا قدر لليابان وكوريا وتايوان أن لا يبخلوا في نقل الخبرة التكنولوجية التي وصلوا إليها إلى جيرانهم وبني جلدتهم، فإنه لن يمر وقت طويل قبل أن نشهد معجزات أخرى. تباهي بها فيتنام وكمبوتشيا، ويتحرك بها المارد الصيني، لبناء كتلة لا يختلف أحد في أنها ستكون الأكبر بين الكتل البشرية المتنافسة، حين تضم قريباً من نصف سكان الكرة الأرضية ونصف خاماتها.

★ لقد تمت الزيارة فيما بعد في شهر أيار ١٩٨٩ .